كلية: الآداب

القسم أو الفرع: اللغة العربية

المرحلة: الدراسات العليا/ الدكتوراه

أستاذ المادة: أ.د.ارميض مطر حمد

اسم المادة باللغة العربية: الخطاب النقدي والبلاغي

اسم المادة باللغة الإنكليزية:

اسم المحاضرة السابعة باللغة العربية: الرجوع والسلب والإيجاب

اسم المحاضرة السابعة باللغة الإنكليزية:

محتوى المحاضرة السابعة

الرجوع والسلب والإيجاب

مما لا شك فيه أنَ (الرجوع) لم يكن مقتصرًا في تداخله مع الاستدراك, بل يتضافر مع فنون أخرى لا تقل أهمية عن الاستدراك في تعريز المعنى وتوكيده, منها (السلب والإيجاب)[1], كونه

[1] وقد عده ابو هلال العسكري نوعا بديعيا, فقال: " هو تبني الكلام على نفس الشيء من جهة واثباته من جهة اخرى, او الامر به في جهة والنهي عنه في جهة, وما يجري مجرى ذلك ", كتاب الصناعتين: ٣١٧
وابان عنه ايضا التبريزي قائلا: "هو ان يوقع الكلام على نفي الشيء اثباته في بيت واحد " الكافي في العروض والقوافي: ١٣٤

يسهم في توكيد المعنى المثبت؛ لأنَ هذا الفن تكمن فاعليته في نفي الجملة ثم ينتقض النفي تارة أخرى, وهنا يحصل التداخل مع فن (الرجوع), إذ إنَ (الرجوع) يقوم على أساس نقض الكلام وإثبات غيره, وما يحصل في فن (السلب والايجاب) هو إثبات الشيء للشيء بنفيه, وهذا لا يعني أنَ (السلب والإيجاب) مختص بإفادة المدح, ولكنه أيضًا. هذا الأمر دفع بعض علماء البلاغة إلى تسمية هذا الفن بالطباق السلب.[٢]

في ضوء ما تقدم آثرت في هذا الفصل بيان فاعلية (الرجوع) عن طريق تضافره مع فن (السلب والإيجاب) في إثراء المعنى وإبرازه بالصورة التي تقربه من قصدية السياق القرآني, علمًا أنَ هناك نفيًا مطلقًا وآخر مقيدًا ضمن فنون بلاغية تجعل هذا النفي في إطارها, لاسيما (السلب والإيجاب), لذلك سأحاول في هذا الفصل تتبع الشواهد القرآنية التي توحي بالرجوع ونقض الكلام وإثباته عن طريق تداخل هذين الفنيين.

من ذلك قوله تعالى: (وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ).[٣]

نلحظ في هذه الآية المباركة تضافرًا فاعلًا, إذ تجد (الرجوع) حاضرًا فيها, وكذلك (الإستدراك), فضلًا عن (السلب والإيجاب), كل ذلك ساهم في إبراز افتراء اليهود وتكهنهم في تحديد مدة العذاب الذي سيلاقونه في نار جهنم, وكأنَهم اتخذوا موثقًا من الله.

لذلك جاء الخطاب القرآني بصيغة السلب (لن تمسنا النار), وتحديد الزمن أيامًا معدودة, علما أنَ الباري ـ عزَ وجل ـ في سورة آل عمران قال: (اياما معدودات).[٤] هذه المغايرة السياقية لفتت انتباه الغرناطي, فقال: " فأفرد في البقرة الوصف وجمع في آل عمران, فقيل: معدودات, والجاري

في حين عرفه ابن أبي الإصبع المصري قائلا: " وهو بناء الكلام على نفي الشيء من جهة, او امر بشيء من جهة ونهي عنه من غير تلك الجهة ". بديع القرآن: ١٦٥

[٢] وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد, احدهما مثبت والاخر منفي, ويسمى المطابقة بالنفي ينظر الايضاح: ٣٦٤

[٣] سورة البقرة: ٨٠ ــ ٨١

[٤] سورة آل عمران: ٢٤

عليه الوصف في السورتين قوله: أيامًا بلفظ واحد فيسأل عن موجب اختلاف الوصف... فناسب الإفراد والإيجاز وناسب الإسهاب ".[٥] وفي ذلك إشارة إلى تخطي حدود الله والتكهن القائم على تزيين الشيطان لهم أنَ لهم نجاة من النار، ولذا قالوا: (لن تمسنا), علمًا أنَ المساس يكون بين شيئين مع إحساس خفيف, بعكس اللمس, فهو يكون بين شيئين مع إحساس كامل بذلك الشيء, ليبيَن الكفار أنَ العذاب الواقع بهم فيه شيء من الحنو والرفق, بغية الإعلام بعلو مكانتهم عند الله, لذلك جاء الخطاب القرآني بصيغة الإستفهام الإنكاري: (قل اتخذتم عند الله عهدًا), فيه توبيخ وسخرية من ادعائهم وافترائهم, وفي ذلك إشارة إلى " أنَهم متفاوتون في نقائص كفرهم, فقوم منهم أخس درجة وأكثر جهلًا ركنوا إلى التقليد, ولم يملكهم إلا استيلاء شبهة بل اغتروا بظن وتخمين, منهم لا نصيب لهم من كتبهم إلا قراءتها دون معرفة معانيها, ومنهم من أكثر شأنه ما يتمناه في نفسه ".[٦]

أي أنَّ دعواهم باطلة, لأنَها قائمة على التخمين, فجاء الجواب بـ (بلى) ليؤكد كذبهم وافتراءهم, فضلًا عن وقوع العذاب بهم, بدليل تذييل الآية بقوله: (هم فيها خالدون), ثم استدرك بصيغة (الرجوع) في قوله: (من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته), أي " من عمل مثل أعمالهم وكفر بمثل ما كفرتم به, حتى يحيط كفره بما له من حسنة, (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)، ثم قال بذمهم: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ)[٧].."[٥]

فالحكمة الربانية اقتضت العدالة في الخلود في الجنة والنار, وهذا الأمر مرهون بالفعل البشري, فالعابد له مثواه يختلف عن مثوى الكافر المتكبر.

ومما تم ملاحظته في سياق الآيتين جمالية التضافر السياقي بين (الرجوع) والفنون الأخرى التي ساهمت في إثراء المعنى وإيصال الفكرة إلى المتلقي بسلاسة وعذوبة؛ لان تضافر (الرجوع مع (الاستدراك), و(السلب والإيجاب) أبان عن بطلان دعوى اليهود في تحديد مدة مكثهم في النار,

---

[٥] ملاك التأويل: ٤٦
[٦] لطائف الاشارات
[٧] سورة البقرة: ٨٣

فبعضهم ادعى أنَها سبعة أيام, وآخرون ادعو أربعين يومًا على وفق عبادتهم للعجل, وفي ذلك دليل على حمقهم وقصور تفكيرهم, عليه فإنَ الخطاب اقتضى أن يكون السياق القرآني متضمنًا لكل هذه الأدوات.

وقوله تعالى: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).[٨]

الملاحظ في سياق هاتين الآيتين وجود (الرجوع) في قوله: (بلى من أسلم وجهه) المتضافر مع الإستدراك والسلب في قوله: (لن يدخل الجنة), وفي ذلك نقض لدعوى اليهود والنصارى من أنَ الجنة مأوى لهم, لذلك جاء الخطاب (تلك أمانيهم), فضلاً عن الأمر الذي خرج إلى معنى التعجيز (قل هاتوا برهانكم), "وهو خطاب للنبي (ﷺ), أي أئتوني بالحجة الساطعة على ما تزعمون إن كنتم صادقين ".[٩]

وأكد المفسرون أنَ تضمن السياق القرآني بـ (بلى) الاستدراكية, هو إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة.[١٠]

وقد أبان الرازي عن ثلاثة وجوه في دخول (بلى) على السياق القرآني:

الاول: أنَه إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنة.

الثاني: أنَه تعالى لما نفي أن يكون لهم برهان أثبت أنَ لمن أسلم وجهه لله برهانًا.

الثالث: كأنَه قيل لهم أنتم على ما أنتم عليه لا تفوزون بالجنة, بلى إن غيرتم طريقتكم وأسلمتم وجهكم لله وأحسنتم فلكم الجنة, فيكون ذلك ترغيبًا لهم في الاسلام وبيانًا لمفارقة حالهم كحال من يدخل الجنة.[١١]

---

[٨] سورة البقرة: ١١١ – ١١٢

[٩] صفوة التفاسير: ٧٥/١

[١٠] ينظر الكشاف: ٢٠٤/١, المحرر الوجيز: ١٨٢/١

تكمن جمالية التعبير القرآني في اختيار اللفظ بقصدية رائعة , لاسيما في قوله تعالى: (من أسلم وجهه لله), ولم يقل: (من أسلم لله), من دون ذكر الوجه؛ لأنَ الباري ـ عزَ وجل ـ خص الوجه بالذكر لوجوه:

الوجه الاول: لأنَ الوجه أشرف الأعضاء من حيث أنَه معدن الحواس والفكر والتخيل, فإذا تواضع الأشرف كان غيره أولى.

الوجه الثاني: أنَ الوجه يكنى به النفس, قال تعالى: (كلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ).[١٢]

الوجه الثالث: أنَ أعظم العبادات السجدة,وهذا لايتم باعضاء الجسد المختلفة إنَما يحصل بالوجه.[١٣]

إنَ التضافر السياقي الحاصل في هاتين الآيتين, ساهم في إبراز حقيقة أهل الكتاب من يهود ونصارى ومدى تعاليهم على الله ـ ﷻ ـ بجامع الإدعاء الباطل, لذا جاء التعبير القرآني و(قالوا) ليس دليلًا على ثبوت الدعوى وصحتها, إذ إنَ " الضمير في (قالوا) لأهل الكتاب من اليهود والنصارى, بمعنى: قالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا, والنصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى, فلف بين القولين ثقة بان السامع يرد إلى كلِ فريق قوله, وأمنًا من الإلباس, لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كل واحد منهما لصاحبه ".[١٤]

وقوله تعالى: (وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ).[١٥]

يتضح لنا أنَ (الرجوع) في سياق هذه الآية المباركة يكمن في مسألة إصرار اليهود وتمسكهم بما يضرهم, لذا جاء الخطاب القرآني لينقض ذلك في قوله: (ولا ينفعهم), وليؤكد بطلان فعلهم وتسفيه عقولهم, كونهم استبدلوا كتاب الله بالسحر والشعوذة التي لا طائل منها, سوى التفريق بين

---

[١١] التفسير الكبير: ٥/٤
[١٢] سورة القصص: ٨٨
[١٣] التفسير الكبير: ٦/٤
[١٤] الايضاح: ٣٨٣ ينظر الطراز: ٢١٢/٢, بغية الايضاح: ٦٠١/٤, المنهاج الواضح: ١٦٨, البلاغة العربية: ٤٠٨/٢
[١٥] سورة البقرة: ١٠٢

الناس وشحن العداوة والبغضاء بينهم, لذلك أكد الباري ـ عزَ وجل ـ هذا الأمر في قوله: (وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ).

فترى التضافر السياقي قد تجسد في (الرجوع) و(السلب والإيجاب) في قوله: (ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم) لتأكيد حقيقة مهمة, أنَ ما تعلموه من سحر كان سببًا في مضرتهم لا منفعتهم, ومما يؤيد ذلك الأمر التذييل في قوله: (لو كانوا يعلمون), فجاء التذييل ليبيَن الغشاوة التي غشيت أعينهم وحرمتهم من التمسك بما هو نافع ألا وهو (كتاب الله).

إذ إنَ هذا التذييل أبان عن قصور تفكيرهم وسعيهم وراء ما يضرهم. وحفل السياق القرآني بالاستعارة في قوله: (مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ), أي باعوا أنفسهم للتيه والضلال, فترى أسلوب المغايرة الناشئ من استبدال الفعل (شروا) بالبيع؛ " لأنَ بيع النفس على الحقيقة لا يتأتى ".[١٦] وفي ذلك إشارة إلى دناءة الفعل الذي عمدوا إليه, كونه عملًا مبنيًا للخلق, وهذا ناتج عن حقارتهم, لذا سبق هذا الفعل بـ (لبئس), لتأكيد الذم للسحر المسبوق باللام المؤكدة؛ لأنَ " بئس فعل دال على الذم, أي بئس هذا السحر الذي باعوا به أنفسهم, أي أنَ السحر فوق مضراته الواضحة المفسدة للنفس وللجماعة هو ـ في حد ذاته ـ مذموم لا يصح أن يطلب في ذاته ".[١٧] وكذلك التوكيد بـ (لقد) التي أفادت علمهم بنكران هذا الصنيع ومدى ضرره, إلا أنَهم أصروا على فعلهم, كونه يشير إلى صغرهم, فضلًا عن قصور تفكيرهم وسفاهة عقولهم؛ لأنَهم يعلموا ثمار العلم أنَ ما باعوا أنفسهم من أجله لا يقدم لهم شيئًا ولا يدر عليهم بالمنفعة, وكأنَ الآية جميعها تبيَن " إثبات الضرر ونفي النفع الذي ضده مفاد الحصر, كأنَه قيل: ويتعلمون ما ليس إلا ضرًا.. وعدل عن صيغة القصر لتلك النكتة المتقدمة وهي التنبيه على أنَه ضر ".[١٨] يضاف إلى ذلك أنَ قوله تعالى: (ولقد علموا) أثار انتباه الطاهر بن عاشور, فقد أبان أنَ فاعلية هذا الاستعمال قائلًا: " يجوز أن تكون اللام لام القسم وهي (اللام) التي من شأنها أن تدخل على جواب القسم لربطه بالقسم ثم يحذفون

---

[١٦] تلخيص البيان في مجازات القرآن: ١١٧/٢
[١٧] زهرة التفاسير: ٣٤٥/١
[١٨] التحرير والتنوير: ٦٤٦/١

القسم كثيرًا استغناء لدلالة الجواب عليه دلالة التزامية.. ويجوز أن تكون لام الابتداء, وهي لام تفيد تأكيد القسم ".[١٩]

وما تم ملاحظته في سياق هذه الآية هو التضافر السياقي الذي ساهم في تأكيد ضرر السحر وعدم نفعه, وآية ذلك قوله: (من خلاق). " فنفي الخلاق وهو نكرة مع تأكيد النفي بمن الاستغراقية دليل على أنَ تعاطي هذا السحر جرم كفر او دونه, فلذلك لم يكن لمتعاطيه حظ من الخير في الآخرة ".[٢٠]

ومما تجد الإشارة إليه أنَ هذه الأدوات مجتمعة ساهمت في إبراز المعنى المقصود, وكأنَها تدخل في صميم المعنى المقصود, وأنَها لا يمكن أن تأتي الفاظ لتحل محلها, إذ إنَها وظفت توظيفًا رائعًا في بيان بطلان هذا السحر, فضلًا عن نفي منفعته والدعوة إلى تجنب تعاطيه, كونه يكون سببًا في ابتعاد متعاطيه عن شرع الله والولوج في ضرر الناس وتشتيتهم.

وقوله تعالى: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).[٢١]

تكمن فاعلية (الرجوع) في سياق هذه الآية المباركة في نفي كون الباري ـ عزَ وجل ـ يُرزق, بل هو يَرزق عباه, وفي ذلك وصف للمشركين الذين اتخذوا إلها غير الله؛ لذا جاء التوجيه الرباني للنبي محمد (ﷺ) بضرورة ارشاد المشركين إلى آيات الله وصنعه, فذكر خلق السموات والأرض, وكيفية إبداعهما على غير مثال سابق, وكذلك كونه رازقًا لعباده, في ذلك بيان أنَ المشرك لا حظ له في الدنيا من رزق الله ولا في الآخرة؛ لأنَ الرزق قد يكون عملًا طيبًا يفعله المرء ويجزى به, أو هداية تنير له حياته, أو ذرية صالحة تكون سببًا في رفعته وعلو مكانته, فضلًا عن أنَ قوله تعالى: (يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ), إشارة إلى أنَ الباري ـ عزَ وجل ـ ليس بحاجة إلى هؤلاء المشركين؛ لذا جاء

---

[١٩] م.ن: ٦٤٦/١
[٢٠] م.ن: ٦٤٦/١
[٢١] سورة الانعام: ١٤

التوجيه الربانية للنبي (ﷺ) بضرورة خطاب المشركين بالقول: " ان ربي امرني ان اكون اول من اسلم لله من هذه الامة "[٢٢], ونفي أن يكون مشركًا.

فترى جمالية التضافر السياقي بين (الرجوع) و(السلب والإيجاب), إذ ساهما في بيان عظم أعطيات الله لعباده من دون أن يتحرى منهم شكرًا, سوى عبادته والسير على نهجه ودينه؛ لأنَ الشرك عمل يشين فعل المرء, لذلك جاء (الرجوع) ليبيَن عدم حاجة الخالق لعباده وهم بحاجة إلى لطفه ومغفرته , فضلًا عن رزقه.

لو دققنا النظر في الآية المباركة لوجدنا جملة من الأدوات التي وظفت فيها لبيان أحقية توحيد الله وترك عبادة الأوثان, بدليل أنَ الآية ابتدأت بفعل الأمر (قل) وهوعلى وجه الإلزام, إذ خرج إلى معنى التوبيخ, كون الباري ـ عزَ وجل ـ يخاطب من اتخذ غيره إلها, ومما يعضد ذلك هو صيغة الإستفهام الإنكاري (أغير الله), وهنا يتعجب الخالق ـ جل في علاه ـ من حال عباده, الذين ركنوا إلى عبادة ما لا ينفعهم بل يضرهم, عليه جاء لفظ (الإطعام) بجامع الإنتفاع؛ لأنَ " المنافع كلها عند الله ولا يجوز عليه الانتفاع ".[٢٣]

أضف إلى ذلك أنَ صيغة الإستفهام الإنكاري تشير إلى استهجان فعل المشركين, فضلًا عن الوجهين الآتيين:

الوجه الاول: بيان من يصلح أن يكون وليًا ونصيرًا, أهو الذي لا يخلق ولا يرزق أم الخالق الرزاق؟.

الوجه الثاني: بيان قبح من يعبد إلها غير الله؛ لأنَ هذه الآلهة لا تستحق العبادة, كونها دون الله قدرة واعجازًا, لذلك وجه الخطاب للنبي (ﷺ): (قل إني أمرت...)[٢٤], وفي ذلك إشارة إلى صحة توجه النبي, ونفي أن يكون مشركًا؛ لأنَه (ﷺ) آمن بالله بجامع الهداية والبراهين والأدلة, التي نزلت عليه, كذلك دعوته إلى ترك عبادة الأوثان, كونها لا تدر نفعًا على معتنقيها, والأولى أن يكون

---

[٢٢] صفوة التفاسير: ٣٢٥/١
[٢٣] الاساس في التفسير: ١٥٨٩/٣
[٢٤] ينظر م.ن: ١٥٨٩/٣

التوجه لما ينفع ويصلح أن يكون وليًا ونصيرًا. وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ).[٢٥]

نفى الباري ـ عزَ وجل ـ في هاتين الآيتين أمرين:

أولهما: نفى عن هذه الآلهة التي يعبدونها القدرة على خلق أي شيء, كون الآلهة مخلوقة, أي من صنع البشر, فكيف تكون الآلهة تعبد من دون الله؟.

وهذه هي صفات الآلهة, كونها مخلوقة لا تخلق شيئًا, وهذا ما أشار اليه نبي الله إبراهيم (عليه السلام): (أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعلمون)[٢٦]... وبما أنَ أصنام المشركين من عمل أيديهم من حجر, وخشب وغيره, فهي ميتة لا تصلح للألوهية, فالإنسان أكمل منها, كونه ذا روح وحياة, والحي أكمل من الميت.[٢٧]

ثانيهما: نفى عن الأصنام صفة الحياة في قوله: (غير احياء), ويستلتزم " نفي العلم عنها؛ لأنَ الحياة شرط في قبول العلم؛ لأنَ نفي أن يكونوا يعلمون ما هو من أحوالهم يستلزم انتفاء أن يعلموا أحوال غيرهم ".[٢٨]

وهذا ما تم ملاحظته عن طريق التضافر السياقي بين (الرجوع) و(السلب والإيجاب), إذ إنَ الباري ـ عزَ وجل ـ نقض عبادة الأصنام ونفى تسميتها آلهة, فضلًا عن نفي صفتي الخلق والحياة عن الأصنام, الأمر الذي أدى إلى محاجة عقلية من شأنها بيان حقيقة هذه الأصنام:

الحجة الاولى: أنَ العبودية تكون لمن يخلق, كما في قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ)[٢٩], فالأولى عبادة الخالق.

---

[٢٥] سورة النحل: ٢٠ – ٢١
[٢٦] سورة الصافات: ٩٥
[٢٧] ينظر عقيدة التوحيد في القرآن: ٢٩١ – ٢٩٢
[٢٨] التحرير والتنوير: ١٢٦/٢
[٢٩] سورة النحل: ١٧

الحجة الثانية: تستند إلى قوله تعالى: (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا...)[٣٠], هذه كلُها دلائل تفتقر إليها الأصنام, فهي لا أعضاء لها لا تشعر, ولا تبصر, ولا تسمع, إذن هي لا تصلح للعبادة " يعني أنَ الآلهة حالهم منحطة عن حال ما لهم أرجل, وأيد, وآذان, وقلوب؛ لأنَ هؤلاء أحياء وهم أموات, فكيف تصلح لهم العبادة؟ لأنَها لو صحت لهم الأعضاء لصلح أن يعبدوا ".[٣١]

الحجة الثالثة: نفي العلم عن الأصنام, " ينفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث ".[٣٢]

لذلك جاء الخطاب القرآني بالأدلة التي تفضي بعدم اتخاذ ما يخلق معبودًا.[٣٣]

أبان الدكتور محمد أبو موسى أنَه " مخالف لمقتضي حال عبادتهم؛ لأنَ المعبود لا يكون مخلوقًا, فهم ينكرون مخلوقيتها أو الأصل أن ينكروا ذلك, فوجب توكيد أنَهم يخلقون ".[٣٤]

وقوله تعالى: (لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ).[٣٥]

يبدو أنَ جمالية (الرجوع) تكمن في التضافر السياقي مع (السلب والإيجاب), أي أنَ الرجوع قد أبان عن حكمة الله وعظيم ملكه, إذ إنَ الباري ـ عزَ وجل ـ نفى أن يعترض الخلق على أوامره ونواهيه؛ لأنَه المالك والقادر على كل شيء (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ)[٣٦] وقوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ)[٣٧], وقد أحاط بعلم الغيب والشهادة, في قوله: (عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ)[٣٨], وهو المعطي, والمغني, والمفقر, والمضل, والهادي, كل ذلك لحكمة اقتضتها مشيئته, لذا لا ينبغي

---

[٣٠] سورة الاعراف: ١٩٥
[٣١] الكشاف: ٥٩٩/٢
[٣٢] م.ن: ٦٠٠/٢
[٣٣] ينظر الايضاح: ٦٩, بغية الايضاح: ١١٤/١
[٣٤] خصائص التراكيب, دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني: ٢٢٣ ــ ٢٢٤
[٣٥] سورة الانبياء: ٢٣
[٣٦] سورة الرعد: ٨
[٣٧] سورة الانعام: ٦٠
[٣٨] سورة الرعد: ٩

لمعترض أن يعترض على أمر أقره؛ لأنَه مالك كلِ شيء, والمالك يفعل بملكه ما يشاء, لذلك جاء الخطاب القرآني بصيغة النفي, بغية تأكيد هذا الأمر, إذ إنَ المشركين اعترضوا على كل فعل صدر من ربِ العزة, اعترضوا على تحويل القبلة من المقدس إلى بيت الله الحرام, واعترضوا على عبادة الواحد الأحد, كونهم وجدوا آباءهم عاكفين على عبادة الأصنام, واعترضوا على الإنفاق, بحجة أنَ هؤلاء الفقراء قد أفقرهم الله, وهذا هو حالهم.

في ضوء هذه الاعتراضات, أوجد الماوردي (ت ٤٥٠هـ) ثلاثة وجوه لهذه المسألة:

الوجه الاول: لا يسأل الخلق الخالق عن قضائه في خلقه.

الوجه الثاني: لا يمكن للخلق أن يسألوا عن فعل الباري؛ لأنَ فعله صواب وهو لا يريد عليه ثواب.

الوجه الثالث: كون الباري ـ عزَ وجل ـ لا يُحاسب على أفعاله وهم يحاسبون على أفعالهم.[٣٩]

في ضوء هذه الوجوه الثلاثة, تكمن فاعلية التضافر السياقي, إذ إنَ الآية ابتدأت بالنفي (لا يسأل), هذا أمر قاطع لا نقاش فيه؛ لأنَ كلَ أمر صادر منه هو لحكمة اقتضتها مشيئته, لذا فالسؤال عن فعله يعدُ أمرًا غير جائز, بدليل أنَ الملوك والجبابرة لا يمكن لمن هم في معيتهم سؤالهم عن فعل يفعلونه, مهابة وإجلالا, مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد, فكيف بربِ العزة " ورب الأرباب خالقهم ورازقهم أولى لا يسأل عن أفعاله, مع ما علم واستقر في العقول من أنَ ما يفعله كل مفعول بدواعي الحكمة, ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح ".[٤٠]

وقوله تعالى: (وَعْدَ اللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ).[٤١]

مما لا شك فيه أنَ أمر (الرجوع) في هاتين الآيتين جلي وواضح, لاسيما في تضافره مع (السلب والإيجاب), في قوله تعالى: (لا يعلمون, ويعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا), إذ إنَ الباري ـ

[٣٩] ينظر النكت والعيون: ٤٤٢/٣
[٤٠] الكشاف: ١١١/٣
[٤١] سورة الروم: ٦ – ٧

عزَ وجل ـ نفى عن المشركين بالعلم الباطن للدنيا, وأثبت علمهم بالظاهر منها من زخرف, وبهارج, وملاعب, ومكاسب, وأغفلوا أنَها فانية زائلة, أي أغفلوا يوم الآخرة, (يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ).[٤٢]

فعلى المرء أنَ يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب, وأن يدرك خسة الدنيا التي لا تعدل عند الله جناح بعوضة, فهو في الدنيا ضيف أو عابر سبيل, وهي محطة للوصول إلى محطة أكثر أمنًا واستقرارًا, وهي محطة الآخرة,قال رسول الله (ﷺ): (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل), وكان ابن عمر يقول: "إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح, وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء, وخذ من صحتك لمرضك, ومن حياتك لموتك ".[٤٣]

وقول ابن عبد ربه:

ألا إنَما الدنيا نضارة أيكة إذا اخضرَ منها جانب جفَ جانب

هي الدار ما الآمال إلا فجائع عليها ولا اللذات إلا مصائب

فلا تكتحل عيناك فيها بعبرة على ذاهب منها فإنك ذاهب[٤٤]

وقول الشاعر:

يا خاطب الدنيا الدنية أنَها شرك الردى وقرارة الأكدار

دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غدًا بعدًا لها من دار[٤٥]

فترى أسلوب (السلب والإيجاب), جاء ليؤكد حقيقة الشرك والجهل بالعلم الباطن للدنيا من فناء, ومتاعب, ومضار, وأكد ذلك التذييل في قوله: (وهم عن الآخرة هم غافلون), وهذا توكيد بجهلهم وغفلتهم.

---

[٤٢] سورة الشعراء: ٨٨ – ٨٩

[٤٣] صحيح البخاري, كتاب الرقاق: ٦٤١٦

[٤٤] ديوان ابن عبد ربه: ٢٠ – ٢١

[٤٥] ينظر مقامات الحريري:١٨١, وينظر المثل السائر: ٢١٧/٣, ينظر خزانة الادب: ٢٦٦/١

فالملاحظ أنَ فاعلية التضافر السياقي ساهم في إبراز مسألة جهل المشركين بباطن الحياة الدنيا, وسعيهم وراء ملذات الحياة وزخارفها, ونسوا أنَ هناك عذابًا وحياة أخرى بعد الممات, لذا جاء الخطاب القرآني مستدركًا بـ (لكن), ليؤكد جهلهم وقصور تفكيرهم, وآية ذلك تكرار الضمير (هم), ليبيَن أنَ العقلة منهم؛ لأنَ أسباب التذكر حاصلة عن طريق ارسال الرسل من أجل وعظهم وإرشادهم إلى سبيل النجاة, فضلًا عن الكتب السماوية؛ إلا أنَ الانبهار بظاهر الحياة الدنيا أعمى بصيرتهم وغشي عقولهم, فاقتصر تفكيرهم على ظاهر الحياة الدنيا وكأنَها تدوم لهم.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَ اختيار لفظة (ظاهرًا) يفيد أنَ للدنيا ظاهرًا وباطنًا, فظاهرها ما يعرفه الجهال من التمتع بزخارفها والتنعم بملاذها, وباطنها وحقيقتها أنَها مجاز إلى الآخرة يتزود منها وإليها بالطاعة و الأعمال الصالحة, وفي تنكير الظاهر: أنَهم لا يعلمون إلا ظاهرًا واحدًا "[٤٦] وقوله تعالى: (وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ...).[٤٧]

يتضح للقارئ أنَ (الرجوع), و(السلب والإيجاب) يمكن استشعارهما في قوله تعالى: (لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا...), إذ إنَ الباري ـ عزَ وجل ـ على لسان يعقوب (عليه السلام), نفى الدخول من باب واحدة وأكد ضرورة الدخول من أبواب متفرقة لحاجة في نفسه, وهي الخشية من الحسد, مع يقينه أنَ قضاء الله إذا حل لا راد له؛ لذلك قال: (وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ۖ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ).[٤٨]

فترى جمالية التضافر السياقي في هذين الفنيين اللذين ساهما في بيان قصدية نبي الله يعقوب (عليه السلام) من هذا الطلب, كونه ذا علم واسع تعلمه عن طريق الوحي, بدليل قوله تعالى: (وانه لذو علم لما علمناه ولكن اكثر الناس لا يعلمون).[٤٩]

رام نبي الله يعقوب (عليه السلام) تحقيق الآتي:

---

[٤٦] الكشاف: ٤٧٤/٣
[٤٧] سورة يوسف: ٦٧
[٤٨] سورة يوسف: ٦٧
[٤٩] سورة يوسف : ٦٨

١- الإشفاق على بنيه من الحسد, كونهم ذا بسطة في الجسم وهيبة.
٢- الإيمان المطلق بقضاء الله وقدره, لأنَ الحذر لا يدفع القدر.
٣- محاولة منه أن يدفع قضاء الله عن طريق التمويه, لأنَه يخشى العين.

ولكن هناك سؤالًا يتبادر إلى ذهن القارئ, يكمن في غياب هذا الطلب من أبنائه في الزيارتين الأولى والثانية, فلم أكد لهم ضرورة التفرق في أثناء دخول مصر؟

يبدو أنَ سبب هذا التأكيد ـ والله أعلم ـ هو في إلحاحهم بخروج بنيامين معهم, ففي الزيارتين السابقتين لم يأبه لهذا الخطر المحدق, فضلًا عن كونهم غير معروفين, الأمر الذي يجعلهم بعيدين عن أعين الناس والحراس, ولكنهم في الزيارة الثالثة التي اصطحبوا معهم (بنيامين), أصبح الأمر مختلفًا, الامر الذي دفع نبي الله يعقوب (عليه السلام) بضرورة الرجوع والدعوة إلى أن يكون الدخول

من أبواب متفرقة " خشية أن يسترعي عددهم أبصار أهل المدينة وحراسها وأزياؤهم أزياء الغرباء عن أهل المدينة أن يوجسوا منهم خيفة من تجسس أو سرقة, فربما سجنوهم وأرصدوا الأعين إليهم, فيكون ذلك ضرًا لهم وحائلًا دون سرعة وصولهم إلى يوسف (عليه السلام) ودون قضاء حاجتهم ".[٥٠]

وهذا ما أكده الشنقيطي (ت ١٣٩٣هـ), من أنَ الدخول من باب واحد يكون سببًا في لفت أنظار الناس والحراس إليهم, لذلك تعاطى نبي الله يعقوب (عليه السلام) الأسباب, علمًا أنَ تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل على الله؛ لأنَ نبي الله يعقوب (عليه السلام) " يخاف عليهم أن تصيبهم الناس بالعين؛ لأنَهم أحد عشر رجلًا أبناء رجل واحد, وهم أهل جمال وكمال وبسطة في الأجسام, فدخولهم من باب واحد فطنة لأن تصيبهم العين, فأمرهم بالتفرق والدخول من أبواب متفرقة تعاطيًا للسبب ".[٥١]

---

[٥٠] التحرير والتنوير: ٢٠/١٣ – ٢١
[٥١] اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن: ٤٣٩٨/٣, ينظر الجموع البهية للعقيدة السلفية: ٧١٣/٢

من جماليات التضافر السياقي هو إيثار المفردات التي لا يمكن لمفردة أخرى تسد مسدها, وآية ذلك قوله تعالى: (من أبواب متفرقة), ولم يقل: (متعددة)

يبدو ـ والله اعلم ـ أنَ لفظة (متفرقة) تتناغم مع ما يدور في خلد يعقوب (عليه السلام), من أنَ الدخول من أبواب متفرقة فيه تمويه, أضف إلى ذلك حرص نبي الله يعقوب (عليه السلام) على سلامة أبنائه جميعهم, أقر هذه المفردة, لأنَ خروج (بنيامين) في القافلة أعاد به الذاكرة إلى المأساة التي حصلت ليوسف (عليه السلام), فضلًا عن أنَه توجس خيفة من إصرار أبنائه على خروج (بنيامين) معهم في هذه الزيارة, وكأنَه تحسس أمرًا مبيتا آخر, لذا من باب الإحتراس طلب منهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة حفاظًا عليهم أجمعين.

وقوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ).[٥٢]

يكمن (الرجوع) في هذه الآية المباركة في نفي الباري الظلم عن نفسه, إذ أبان الإستدراك بـ (لكن) عن هذا الرجوع, " وهذا الإستدراك أشعر بكلام مطوي بعد نفي الظلم عن الله, وهو أنَ الله لا يظلم الناس بعقابه من لم يستوجب العقاب, ولكن الناس يظلمون فيستحقون العقاب, فصار المعنى: أنَ الله لا يظلم الناس بالعقاب ولكنهم يظلمون أنفسهم بالاعتداء على ما أراد منهم, فيعاقبهم عدلًا؛ لأنَهم ظلموا أنفسهم فاستوجبوا العقاب ".[٥٣]

إنَ تضافر (الرجوع) مع السلب والإيجاب, فضلًا عن الإستدراك, ساهم في نقض من يظن أنَ الله يعاقب خلقه من دون ذنب اقترفوه, أو يسلبهم الإيمان ابتداء منه؛ لذلك جاء الخطاب القرآني مستدركًا أنَ العقاب ناشئ من ظلم الناس أنفسهم؛ لأنَ الله منح خلقه عقلا يفكرون به, وأبصارًا يرون بها عجائب صنعه, وآذانًا يسمعون بها كلام الله ونصائح رسله, إلا أنَهم لم يأبهوا لذلك كله, فوقع عليهم العقاب جزاء لهم

---

[٥٢] سورة يونس: ٤٤
[٥٣] التحرير والتنوير: ١١/١٨٠

هذا التضافر السياقي ساهم أيضًا في إيصال فكرة " أنَ الله لا يعاقب أحدًا بدون ذنب, ولا يفعل بخلقه ما لا يستحقون, لكن الناس يظلمون أنفسهم بالكفر والمعاصي ومخالفة أمر الله ".[٥٤]

ومما يؤكد ذلك التذييل في قوله: (ولكن الناس انفسهم يظلمون), وهو تذييل شمول وعموم, إذ إنَ الباري ـ عزَ وجل ـ لم يحدد فئة معينة, فقال: (الناس) يشمل " عموم الناس المشركين الذين يستمعون ولا يهتدون وينظرون ولا يعتبرون, والمقصود من هذا التذييل التعريف بالوعيد بان سينالهم مما نال جميع الذين ظلموا أنفسهم بتكذيب رسل الله... وإنَما حسن الإتيان في جانب هؤلاء بصيغة العموم تنزيلًا للكثرة منزلة الإحاطة؛ لأنَ ذلك غالب حال الناس في ذلك الوقت ".[٥٥]

وما تم ملاحظته في سياق الآية, هو تقديم المفعول (الناس) على الفعل (يظلمون), هذه النكتة البلاغية, أبان عنها الشنقيطي هو " لإفادة القصر أو لمجرد الإهتمام مع مراعاة الفاصلة ".[٥٦]

أما الطاهر بن عاشور, فقد أبان أنَ سبب التقديم هو " لإفادة تغليظهم لأنَهم ما جنوا بكفرهم إلا على أنفسهم, وما ظلم الله ولا رسله فما ضروا بعلمهم إلا أنفسهم".[٥٧]

وقوله تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۚ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ۚ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ).[٥٨]

يلاحظ عن طريق القراءة الفاحصة للسياق القرآني, أنَ (الرجوع) تجسد في نفي أن يكون ما حصل للنبي (ﷺ) وصاحبه أبي بكر الصديق (رضي الله عنه) شرًا بل كان خيرًا لهم.

فترى تضافر (الرجوع) مع (السلب والإيجاب), فضلًا عن (الاستدراك), ساهم في بيان حقيقة هذه الكذبة المفتعلة؛ لأنَ هذا الأمر لا يصدق على زوج رسول الله (ﷺ) وإنَما هو محض افتراء من لدن جماعة من المشركين اتفقوا, لينالوا من الرسول وأزواجه الطاهرات.

---

[٥٤] صفوة التفاسير: ٥٠٠/١
[٥٥] التحرير والتنوير: ١٨٠/١١
[٥٦] فتح البيان في مقاصد القرآن: ٦٩/٦
[٥٧] التحرير والتنوير: ١٨٠/١١
[٥٨] سورة النور: ١١

ومما يعضد ذلك إيثار القرآن الكريم لجملة مفردات منها (الإفك), وهذا يتناغم وافتراءات المشركين؛ فإن الإفك: هو البهتان وقول الزور[٥٩], وهو أبلغ ما يكون من الكذب, وقيل البهتان لا تشعر به حتى يفجأك.[٦٠]

من هذا المنطلق اعتمد الخطاب القرآني هذه المفردات, ليبيَن زور هؤلاء وبراءة أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها), كذلك آثر القرآن لفظة (عصبة), ولم يقل جماعة؛ لأنَ العصبة تشي بالشر, فهي متأتية من التعصب, ومحاولة الإنتصار لأمر مبيت, كي ينالوا من خصمهم, بمعنى أنَ هناك اتفاقًا صدر من هذه المجموعة المقرضة, بغية النيل من الرسول (ﷺ) وزوجه.

ومما لا يدع مجالًا للشك أنَ هذه المفردات قد تجاذبت العناق مع بعضها خدمة للمعنى المقصود, وتأسيسًا على ذلك وجدنا الخطاب القرآني في هذا السياق لم يعطف (الخير) على (الشر), فلم يقل : (بل خير لكم)؛ لأنَ الجملة الإسمية أقوى, للإشارة إلى تغليب جانب الخير على الشر. يضاف الى ذلك كله الإلتفات من الغائب

(إنَ الذين

جاءوا..) إلى المخاطب (لا تحسبوه شرًا..), فيه إشارة إلى الآتي:

١- إنَ الغم الشديد الذي أصاب الرسول (ﷺ), وأبا بكر الصديق (رضي الله عنه) لم يكن شرًا لهم, بل خيرًا لهم, مما نالوا من الثواب, فضلًا عن السرور الذي عمهم, نتيجة بيان براءة أم المؤمنين عائشة (رضي الله عنها).

٢- إكرام للنبي وآل بيته, وذلك بإنزال الوحي في شأن هذه الحادثة.

٣- خطاب العصبة المفترية بصيغة الغائب, بجامع التحقير والتصغير من شأنهم.

هذه الأمور مجتمعة أبانت عن طهارة أم المؤمنين ونقاء ثوبها.

وقوله تعالى: (يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ...).[٦١]

---

[٥٩] ينظر تاج العروس: مادة (افل)

[٦٠] الكشاف: ٢٢١/٣, البحر المحيط: ٤٠/٦, التحرير والتنوير: ١٦٩/١٨

يلاحظ عن طريق القراءة المتأتية لهذا السياق, أنَ (الرجوع) حاضر في نقض ما يقوله المتخلفون عن غزوة تبوك, ونفي ما يدعونه من حجج؛ لذلك جاء الرد (لا تعتذروا), هو نهي قاطع لا مجال فيه؛ لأنَ الباري ـ عزَ وجل ـ أخبر المسلمين بأحوال هؤلاء المنافقين وما يدور في خلدهم من خبث ونفاق, وآية ذلك قوله: (قد نبأنا الله من اخباركم)[٦٢]

فترى تضافر (الرجوع) مع السلب والإيجاب, بغية إثبات حقيقة هؤلاء المنافقين الذين قعدوا عن الجهاد في سبيل الله, ورضوا أن يكونوا مع النساء والمرضى والعجزة, إذ قال تعالى: (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف)[٦٣], شبه حالهم كحال الأعمدة في أواخر بيوت الحي.

أبان الرازي عن فاعلية (الرجوع) في قوله: " (لن نؤمن لكم), علة للمنع من الاعتذار؛ لأنَ غرض المعتذر أن يعد عذره مقبولا, فإذا علم بأن القوم يكذبونه فيه, وجب عليه تركه, وقوله: (قد نبأنا الله من أخباركم) علة لانتفاء التصديق؛ لأنَه تعالى لما أطلع رسوله على ما في ضمائرهم من الخبث والمكر والنفاق امتنع أن يصدقهم الرسول (ﷺ) في تلك الأعذار ". وقوله تعالى: (قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ).[٦٤]

تشير الآية المباركة إلى مشهد يقطر ألمًا وحزنًا؛ لأنَه ينطوي على مكابرة الولد وعناده, وعدم انصياعه لأوامر والده, الأمر الذي جعل الخطاب القرآني يتخذ من (الرجوع) المقترن بالسلب والإيجاب سبيلًا لنفي أن يكون هناك معصوم من أمر الله إلا من رحم؛ لأن نبي الله نوح (عليه السلام) دعا ابنه أن يكون تحت راية الإيمان, إلا أنَه كابر وسفه حلم أبيه, بدليل أنَ نوحًا (عليه السلام) بدافع الحرص والإشفاق على ولده, قال: (يا بني اركب معنا), وهذا نداء خرج إلى معنى الإغراء والحث على ترك ما قر في ذهنه من أنَ الجبال تعصمه من الغرق،وهذا ظن قائم على الله نوح (عليه السلام) هذه الفكرة فقال: (لا عاصم اليوم من أمر الله), وهذا ظن قائم على المكابرة

---

[٦١] سورة التوبة: ٩٤
[٦٢] سورة التوبة: ٩٤
[٦٣] سورة التوبة: ٨٧
[٦٤] سورة هود: ٤٣

والعناد, لذلك نقض نبي الله نوح(عليه السلام) هذه الفكرة،فقال:(لاعاصم اليوم من أمر الله)،وهذا يعد رجوعًا من شأنه دحض الفكرة الكامنة في ذهن ولده؛ لأنَ عدم الإنصياع للأوامر يعد خروجًا على حدود الله, كونه عاقا لوالده .

لذلك جاء الرد في قوله تعالى: (وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ).[٦٥] بصيغة تناغم والقصد القرآني ،إذ قال تعالى: (ا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّ), ولم يقل: (لا عاصم اليوم من الماء), " على نحو ما قال ابنه إشعارًا بأن المشكلة ليس مشكلة ماء, إنَها مشكلة أمر الله ـ عزَ وجل ـ خالق كل شيء والميسر لكل شيء ".[٦٦]

استنادا إلى ما سبق نجد جمالية التصوير القرآني في التغاير السياقي وهو "الإنتقال من أسلوب النداء بين نوح وولده, ثم فجأة يأتي الفعل الماضي (وحال بينهما الموج), ليرسم سرعة حركة الموجة في إغراقه حتى غدا ماضيًا, بعد أن كان حاضرًا في النداء مع أبيه, والعطف (فكان من المغرقين), يؤكد سرعة الاغراق بين حركة الموج وسرعة ابتلاعه ".[٦٧]

والجدير بالذكر أنَ أسلوب (السلب والإيجاب), (يعصمني), (لا عاصم) يتجسد في حث نبي الله نوح (عليه السلام) ولده إلى تصديق هذه الدعوة, وأن يكون مؤمنًا برسالة أبيه, بدليل أنَه في سياق الآية السابقة قال:(يا بني اركب معنا), فنجد في هذا الخطاب شفقة الوالد على ولده (يا بني) تصغير ينطوي على رحمة ومحبة وشفقة, أما أسلوب الأمر (اركب) خرج إلى معنى الإرشاد والعرض والتحذير من مغبة عناده.

وقوله تعالى: (يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ).[٦٨]

---

[٦٥] سورة هود: ٤٢
[٦٦] من روائع القرآن: ٢٨٣
[٦٧] وظيفة الصورة الفنية في القرآن: ٢٧٢
[٦٨] سورة الحجرات: ١٧

المتأمل في سياق هذه الآية المباركة يجد تضافرًا سياقيًا بين (الرجوع) و(السلب والإيجاب), إذ إنَ المنافقين عندما أعلنوا إسلامهم ظنوا أنَهم أصحاب فضل ومنة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم), ولم يدركوا أنَ نفع ذلك عليهم, لذلك جاء الرد القرآني: (لا تمنوا علي إسلامكم), فرجع ليبيَن لهم أنَ الذي يمن عليهم هو الله, فجاء الإستدراك بـ (بل), ليؤكد ذلك في قوله: (بل الله يمن عليكم أن هداكم..).

فترى جمالية التضافر السياقي ومدى فاعليته في تجسيد المعنى المطلوب, إذ لا يمكن أن ينفك (الرجوع) عن (السلب والإيجاب), فضلًا عن الإستدراك, لأنَ هذه الآيات مجتمعة ساهمت في إبراز المقصد.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه, أنَ الباري ـ جل في علاه ـ في قوله: (إن كنتم صادقين) قد حذف جواب الشرط لدلالة ما قبله عليه, والتقدير: (إن كنتم صادقين في ادعائكم, فلله المنة عليكم)[٦٩], وفي ذلك إشارة إلى كونهم غير صادقين؛ لأنَ بني أسد أرادوا القول للرسول (ﷺ) إننا أسلمنا من دون إكراه أو غزو, فمنوا عليه إسلامهم, وكان ذلك نفاقًا ولم يكن نابعًا عن إيمان صادق, لذلك ذيلت الآية بقوله: (إن كنتم صادقين), إلا أنَ الرسول الكريم (ﷺ) اعتاد على حسن التأدب في القول مع الله, وآية ذلك أنَه قال: (بل الله يمن عليكم), ولم يقل: (بل لي المنة عليكم), فضلًا عن أنَه (ﷺ) لم يقل: (يمن عليكم أن أسلمتم), بل قال: (أن هداكم للإيمان), لأنَ إسلامهم كان ضلالًا, ولم يكن عن محبة لدين الاسلام, بل كان نفاقًا[٧٠], " فجعل الإيمان غاية, ذلك أنَ الإيمان من الأمن, وهو استقرار النفس وطمأنينتها, وأكثر ما يرهق الإنسان فقد أمنه النفسي, فبلوغه غاية من أعظم الغايات ".[٧١]

وقوله تعالى: (لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا).[٧٢]

---

[٦٩] ينظر الكشاف: ٣٨١/٤

[٧٠] ينظر التفسير الكبير: ١١٨/٢٨

[٧١] لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ٥٢

[٧٢] سورة الفرقان: ١٣

فتجلى بؤرة السياق القرآني في تضافر (الرجوع) مع (السلب والايجاب): (لا تدعوا), (ادعوا), ليؤكد عن طريق التوبيخ والتقرير أنَ دعاءهم على أنفسهم بالويل والهلاك لا نفع منه, ولو كان الدعاء لمرات عدة, وفي ذلك إشارة إلى قسوة العذاب الواقع بهم, الأمر الذي يضطرهم إلى متابعة الدعاء, بغية الخلاص, إلا أنَ دعاءهم لا يستجاب, لذلك تستشعر في قوله: (وادعوًا ثبورًا كثيرًا) يخرج إلى التيئيس من هذا الدعاء وإن كثر لا فائدة منه.

الملاحظ أنَ التضافر السياقي أبان عن حقيقة هؤلاء الكفار وشدة ما يلاقونه من هول وعذاب في النار, إذ إنَ تكرار الدعاء بالويل يوحي بذلك, ولكنهم من باب إغراء أنفسهم يأملون الخلاص وتخفيف العذاب, وآية ذلك قولهم: (وهم يصطرخون فيها ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل)[٧٣] نفهم من ذلك أنَهم

قد اعترفوا بضلالهم وكفرهم, وأنَهم لم يهتدوا إلى السبيل المفضي إلى النجاة, وآية ذلك قوله: (وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ).[٧٤] هنا يتجلى (الرجوع) برفض هذا الطلب رفضًا قاطعًا, ويجابون بما يستحقون؛ بسبب ظلمهم أنفسهم وعصيانهم وجحودهم بنعم الله, فضلًا عن شركهم, فيقولون: (ربنا اخرجنا منها فان عدنا فإنا ظالمون, قال اخسؤوا فيها ولا تكلمون).[٧٥]

وقوله تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِنْ لَا تَشْعُرُونَ).[٧٦]

حري بنا ونحن نتأمل السياق القرآني, إلا أن ننوه إلى أنَ الرجوع يكمن في قوله: (بل أحياء) لنقض قول من ظن أنَ الذين سقطوا في معركتي بدر وأحد أموات حالهم كحال من يموت في فراشه, فجاء النقض, بغية إثبات أنَهم يعيشون حياة هانئة أسمى من الحياة الدنيا, فقد تضافر الرجوع مع السلب والايجاب (لا تقولوا), (بل أحياء), ليؤكد حقيقة هؤلاء الشهداء الذين ظن الناس

[٧٣] سورة فاطر: ٣٧
[٧٤] سورة الملك: ١٠
[٧٥] سورة المؤمنون: ١٠٦ – ١٠٧
[٧٦] سورة البقرة: ١٥٤

أنَهم أموات, لذلك جاء الإثبات بعد النفي ليؤكد هذه الحقيقة والمنزلة الرفيعة التي سينالها هؤلاء الشهداء عند الله.

فترى النفي في قوله: (لا تقولوا) من باب الإكرام والإعلاء من منزلة الشهداء, فضلًا عن تسلية المحزونين لفراقهم وبث الراحة في نفوسهم.

ومما يؤيد ذلك التذييل في قوله: (ولكن لا تشعرون), ليبين أنَ أمر هؤلاء الشهداء والمكانة التي هم عليها في عالم البرزخ لا يدركها البشر, فعليهم عدم الخوض في تفاصيلها, فهي في علم الغيب.

وقوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ).[٧٧]

لا شك أنَ فاعلية (الرجوع) تجسدت في نقض موسى (عليه السلام) أن يكون ما جاء به سحرًا وعملًا باطلًا, إذ أكد ذلك في التذييل في قوله: (ولا يفلح الساحرون), وهذا نفي قاطع لفلاح الساحر أو نجاحه, لذلك نجد التضافر السياقي ساهم في إبراز هذا المعنى, وآية ذلك (السلب) في قوله: (ولا يفلح), فضلًا عن الإستفهام في قوله: (أتقولون للحق لما جاءكم), فقد خرج هذا الإستفهام إلى الإنكار والتوبيخ؛ لأنَ موسى (عليه السلام) لما رأى استكبارهم وإصرارهم في كونه ساحرًا, أراد أن يبرهن لهم صحة دعواه, والإقرار بكون هذا العمل حقًا وليس بهتانًا, قال: (أسحر هذا), وهو استفهام تعجبي من حالهم وما قر في أذهانهم أنَ ما يفعله لأجل السحر, ليس لإظهار آيات الله وبراهينه , الأمر الذي دفعه إلى هذا الإستفهام؛ لأنَهم قصروا تفكيرهم على أنَه سحر مؤكد وليس شكًا فيه, لذلك خاطبهم بهذه الصيغة تعجبًا من حالهم وما رسخ في أذهانهم من أباطيل وخرافات, أضف إلى ذلك أنَ أمر تكذيب أنبياء الله لم يكن مقتصرًا على تكذيب موسى (عليه السلام)؛ بل هو أمر تكرر " من نبي إلى نبي ومن أمة إلى أمة, ونجد سببه واحد أنَه الإلف والتعود والتعصب لما ورثوه عن جيل الآباء والأجداد من عادات وعقائد وقعوا أسرى لها دون أن يتساءلوا

[٧٧] سورة يونس: ٧٦ – ٧٧

حولها ليعرفوا موقفها من الصواب والخطأ, والحق والباطل, وإنما كفاهم أنَها مواريث الآباء ومقدسات الأجداد, وكان موقفهم من دعوة الرسل هو الرفض والمعاندة ".[٧٨]

ولو نظرنا نظرة فاحصة في سياق هذه الآية لوجدنا إيثار بعض المفردات التي أدت المقصود, ومنها (الحق), " والحق يطلق اسمًا على ما قابل الباطل, وهو العدل الصالح, ويطلق وصفًا على الثابت الذي لا ريب فيه, فكان جعل الحق جائيًا بتلك الآيات صالحًا لمعنيي الحق, لأنَ تلك الآيات لما كانت ثابتة لا ريبة فيها كان في ذاتها حقًا, فمجيئها حصولها, وظهورها المقصود منه إثبات صدق موسى فكان الحق جائيًا معه ".[٧٩]

ومما تم ملاحظته هو اعتماد مؤكدين في قوله: (إنَ هذا لسحر). وهذا ناجم عن إنكارهم للحق الذي جاء به موسى (عليه السلام), لذلك أكد الخبر بمؤكدين, بغية بيان شدة إنكارهم, إذ إنَهم " لما رأوا المعجزات التي هي حق ثابت وليست بتخيلات وتمويهات, وعلموا أنَ موسى صادق فيما ادعاه, تدرجوا من مجرد الإباء المنبعث عن الاستكبار إلى البهتان المنبعث عن الشعور بالمغلوبية".[٨٠]

وقوله تعالى: (فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا).[٨١]

تدور بؤرة السياق القرآني حول مسألة نفي شيء وإثبات آخر, وهذا هو مبدأ (الرجوع) القائم على إثبات شيء ثم نقضه, وهذا ما حصل في سياق الآية المباركة, إذ إنَ الباري ـ عزَ وجل ـ نهى عن القول المؤذي للوالدين, ولو كان أقله, ثم الرجوع بإثبات ضرورة القول الطيب الذي يتناسب ومكانة الوالدين.

فترى تضافر (الرجوع) مع (السلب والايجاب) أبانا عن مسألة التأدب في مخاطبة الوالدين؛ لأنَ الرجوع قائم على بناء الكلام " على نفي الشيء من جهة, وإثباته من جهة أخرى, أو الأمر من جهة والنهي عنه من جهة ما يجري مجرى ذلك ".[٨٢]

---

[٧٨] الوحي والانسان "قراءة معرفية": ٢٠
[٧٩] التحرير والتنوير: ٢٤٨/١١ – ٢٤٩
[٨٠] م.ن: ٢٤٨/١١
[٨١] سورة الاسراء: ٢٣

المتبع لسياق الآية يجده قد ابتدأ بالنهي (لا تقل), بغية الإبلاغ عن كيفية الخطاب مع الوالدين والقياس عليه في مخاطبتهما فيما هو أعلى من ذلك, بدليل أنَ كلمة (أف) التي نهى عنها في القول على الرغم من قلة أذاها، إلا أنَ الباري ـ جل في علاه ـ نهى عنها؛ لأنَ كلمة (أف), " كلمة خاصة في عموم الكليات التي يكون فيها إيذاءهما, وهي أدناه, وهذا إطلاق خصوص أذى معين, وإيراده ما يؤذي على وجه العموم, فهو في إطلاق الخاص وإرادة العام ".[٨٣]

ومن جماليات التعبير القرآني, أنَه أقل الضرر على ما هو أقوى منه, (لا تقل لهما أف), (ولا تنهرهما)؛ لأنَ الضجر مقرون بالكف عن التنفيذ لما طلبه الوالدين, اما النهر فهو مقرون بالتكذيب والمنع, وإظهار التضجر أقل من التكذيب أو منع الوالدين من فعل شيء ما, وهذا لا تتناسب والآداب أو الأخلاق التي دعا إليها الإسلام في نفوس المسلمين, وفائدة ذلك " التنبيه بالأخف على الأشد, وتدريب المخاطبين على أن يعملوا عقولهم في فهم النصوص ليقيسوا الأشباه والنظائر, ليعلموا أنَ النهي عن الأضرار أو الإيذاء الأخف بداهة على ما هو أشد منه ".[٨٤]

وقد ابان الرازي في تفسيره ان المنع في الاخف يكون من باب الاستدلال بالأدنى على الاعلى.[٨٥]

وقوله تعالى: (فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ).[٨٦]

في ضوء سياق هذه الآية, نجد رجوعًا وإيجابًا وسلبًا في آن واحد, إذ إنَ التضافر السياقي لهذين الفنيين ساهما في إبراز المعنى المقصود, بدليل أنَ الخطاب القرآني بدأ بالنهي (لا تخشوا الناس)؛ لأنَ علماء اليهود على علم بما يتضمنه التوراة من أحكام وحدود, إلا أنَهم عمدوا إلى كتمانها, لذلك حثهم الباري ـ عَزَ وجل ـ إلى ضرورة إظهارها, لتكون آية لليهود ونبراسًا لهم, فجاء (الرجوع) (واخشون), أي لا تخافوا الناس بل خافوا مني.

---

[٨٢] كتاب الصناعتين: ٣١٧
[٨٣] البلاغة العربية: ٢٧٨/٢
[٨٤] البلاغة العربية: ٢٧٨/٢
[٨٥] ينظر التفسير الكبير: ٣٢٥/٢٠
[٨٦] سورة المائدة: ٤٤

وما تم ملاحظته في سياق هذه الآية, هو تقديم النهي من خشية الناس على خشية الله, لذلك لم يظهر ذاته الإلهية؛ لأنَ علماء اليهود أخذوا يحرفون التوراة ويسقطوا ما أمر الله به, رغبة منهم في إرضاء ملوكهم وأشرافهم والناس, لذلك اقتضى المقام هذا التقديم.
على أساس ذك خاطب الباري ـ عزَ وجل ـ اليهود الذين كانوا في عهد الرسول (ﷺ) وحثهم على التزام ما هو موجود في التوراة وإظهاره على ما هو عليه من دون حذف أو تحريف.

ومن الدقائق اللغوية في هذه الآية هو حذف الضمير (الياء) من الفعل (اخشون), بدليل أنه في سورة البقرة اثبت (الياء) في قوله: (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره لئلا يكون للناس عليكم حجة الا الذين ظلموا منهم فلا تخشوهم واخشوني ولأتم نعمتي عليكم ولعلكم تهتدون)[٨٧]؛ لأنَ المقام اقتضى وجود (الياء)في (اخشوني)؛ لأنَ الحديث في أمر تحويل القبلة, فكثر الحديث فيه, وبدأ المنافقون يزيدون ويرجفون, بغية إحداث ثغرة في صفوف المسلمين, لذلك أثبت (الياء) في الفعل أي إثبات ذاته الإلهية, بعكس آية سورة المائدة, فإنَ ما أحدته اليهود في التوراة أقل حدة من أمر تحويل القبلة.[٨٨]

وقوله تعالى: (إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ).[٨٩]

لا شك أنَ فاعلية (الرجوع) تكمن في نفي الخوف من وسواس ذلك المشرك الذي حاول إدخال الرعب في قلوب المسلمين, لذلك جاء الخطاب القرآني ليرد عليه في قوله: (وخافون), وهو خطاب يحمل في طياته دعوة إلى ترك الخوف من وسواس ذلك المشرك, بل ينبغي الخوف من رب العالمين.

إنَ تضافر (الرجوع) مع (السلب والايجاب) ساهما في إبراز المعنى المقصود وتأكيد ضرورة أنَ يكون الخوف من الخالق لا من العبد؛ لأنَ الخالق تكفل بنصر المسلمين.

---

[٨٧] سورة البقرة: ١٥٠
[٨٨] التعبير القرآني: ٨٧
[٨٩] سورة آل عمران: ١٧٥

ومن جماليات التعبير القرآني, هو التذييل الذي خرج مخرج المثل (ان كنتم صادقين), ليؤكد أنَ المؤمن الحق الصادق في عبادته لا يخشى أحدًا سوى الله؛ لأنه متيقن أنَ الله سيكفله برحمته وعطفه.

وكذلك في اسم الإشارة (ذلكم) إشارة إلى إيجاز القول والتنبيه إلى ضرورة أنَ ما يصدر من الخلق لا يشكل حالة تنزع السكينة من القلوب, إذ إنَ ادعاء هذا المشرك بأنَ قريشًا ستعد العدة بجيش جرار لم ينل من عزيمة المسلمين, بدليل أنَ قوله تعالى: (يخوف أولياءه), هو من باب الإكرام للمؤمنين الصادقين؛ لأنَ الشيطان لا يمكن أن يزعزع أو يثبط عزيمة أولياء الله, بل هو قادر على تخويف نصرائه وأوليائه؛ لأنَ الكافر همه الدنيا وملذاتها, بخلاف المؤمن الحق فهو لا يعير بالًا للدنيا وزخارفها. لذلك جاء الخطاب القرآني بتقديم الخوف من الخلق على الخوف من الله, لأنَ الخوف من الخلق لم يأخذ مأخذه من المسلمين, بقدر خوفهم من الله, عليه اقتضى المقام إجتزاء (الياء) من (وخافون), لبيان أنَ هذا الخوف لا يشكل عاملًا خطرًا أو مثبطًا لعزيمة أولياء الله, فإنَ مجرد القول من منافق لا يعدُ شيئًا جسيمًا, فهو مجرد ادعاء باطل من أجل إدخال الرعب في نفوس المسلمين.

وقوله تعالى: (لا يؤاخذكم الله باللغو في إيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور رحيم).[٩٠]

المتأمل في سياق الآية المباركة يجد (الرجوع) يكمن في قوله تعالى: (ولكن يؤاخذكم), أي أنَ الله بعد أن نفى المؤاخذة على ما جرى على ألسنة عباده من ذكر الله من غير قصد الحلف, جاء النقض ليؤكد أنَ المؤاخذة على قصد اليمين أو ما عقد عليه القلب في الإيمان.

فترى الخطاب القرآني قد عمد إلى لفظة (اللغو)؛ لأنَ اللغو هو ما لا يعتد به من كلام وغيره ولا يحصل منه على فائدة ولا على نفع.[٩١]

---

[٩٠] سورة البقرة: ٢٢٥

[٩١] ينظر لسان العرب مادة (لغا)

على هذا الاساس, فإنَ مجيء هذه اللفظة في هذا السياق, لبيان أنَ اليمين إما أن يكون نابعًا عما قرَ في القلب أو ما يطرحه اللسان والإعتياد على يمين محدد. لذلك حدد الخطاب القرآني عن طريق (السلب والايجاب) مواطن المؤاخذة من عدمها؛ لأنَ هناك يمينًا ناشئًا عن اعتياد الإنسان على حلف معين, كأن القول: لا والله, بلى والله, فاذا كان اليمين ما لا يقصده الإنسان, في هذا الموطن لا يؤاخذ؛ لأنَه على سبيل التعود " فأما إذا حلف على شيء بالجد أنَه كان حاصلًا ثم ظهر أنَه لم يكن, فقد قصد الإنسان بذلك اليمين تصديق قول نفسه وربط قلبه بذلك, فلم يكن ذلك لغوًا البتة, بل كان ذلك حاصلًا بكسب القلب ".[٩٢] وهذا ما نص القرآن على مؤاخذته, وقد سبق هذه الآية قوله تعالى: (وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[٩٣], لذا فمن باب التسهيل والتسامح وعدم الإحراج؛ لأنَ التشديد في أمر اليمين سواء أكان قصدًا أو غير ذلك, معنى هذا دعوة إلى الإمتناع عن اليمين مطلقًا أو الإلتزام في كل لفظة دفع كفارة, وكلاهما حرج في الدين.[٩٤]

في ضوء ما تقدم اقتضى المقام ابتداء الآية بالسلب (لا يؤاخذكم), ثم الإيجاب (بل يؤاخذكم), ليكون الإنسان على بينة من أمره.

الأمر الذي اقتضى أن تختتم الآية بالمغفرة والحلم؛ لأنَ هاتين الصيغتين تتناغمان مع المؤاخذة على اللغو في الإيمان.[٩٥]

خلاصة القول إنَ تضافر (الرجوع) مع (السلب والايجاب), أكدا المعنى وأفصحا عن مقصده؛ لأنَ هذين الفنيين لم يكونا اعتباطا بل اقتضاهما السياق القرآني, بغية لفت نظر المخاطب إلى جمالية الخطاب القرآني وفاعليته.

---

[٩٢] التفسير الكبير: ٤٢٧/٦
[٩٣] سورة البقرة: ٢٢٤
[٩٤] التفسير الكبير: ٤٢٧/٦
[٩٥] من بلاغة القرآن: ٦٧ – ٦٨